الصّهيونيّة والحضارة الغربيَّة

قراءة:
■ منير زهير نصولي[1]
■ علي ملّي[2]

ملخّص

يبحث هذا الكتابُ في طبيعة العلاقة بين الحضارة الغربيَّة والصّهيونيّة، وقد قارَبَ الكاتبُ هذه العلاقة على ضوءِ الفلسفة الغربيَّة التي أساسُها النَّفعيّةُ المرتكزةُ على «الدَّاروينيَّة» و«النِّيتشويَّة»، حيث البقاءُ للأقوى ماديًّا، ولا مكان للقِيَم الإنسانيّة والأخلاقية والدِّينيَّة. ويُبرِزُ الكاتبُ كيف أنَّ اللِّيبرالية والمجتمع الصِّناعي العسكري في الحضارة الغربيَّة استغلاَّ المسألةَ اليهوديّة في هذا السِّياق والنَّسق الحضاريّ. وقد عَرض ذلك في عشرة فصول، حيث قدَّمَ تعريفًا لمفاهيم الفلسفة الغربيَّة، وأبرزَ شواهدَ لطبيعة العلاقة بين الحضارة الغربيَّة والمسألة اليهوديّة، فرأى أنَّها عبارة عن مجرَّد استغلال لمجموعة دينيَّة منبوذة ليس لها منفعةٌ في الجغرافيا الغربيَّة، فاستغلَّ الغربُ إرثَ هذه الجماعة لمصالحِه، فنتجَتْ فكرةُ الصّهيونيّة التي لا تتطابق مع الفِكر اليهوديّ.

الكلمات المفتاحية: اليهودية، الصهيونية، الإمبريالية، الحداثة، التَّنوير، اللِّيبرالية، الفلسفة المادية، الاستعمار، العقل الأداتي، نيتشه، فوكوياما، هنتنجتون.

1 - باحث وكاتب سياسي من لبنان.
2 - طالب في الحوزة الدينية من لبنان.

مقدِّمة

يُلقي الكاتبُ الضَّوءَ على خطأٍ منهجيٍّ يَسلكه الباحثون في دراسة الظّاهرة الصّهيونيّة، إذ يُهمِلونَ الأبعادَ التَّاريخية والاجتماعية والثَّقافية، باعتبارها ظاهرةً غربيةً استعماريّةً استيطانيّةً إحلاليّة، ويَنطلقون إلى بطون الكتب الدِّينيَّة اليهوديّة في محاولة لتفسير سلوكِ الصّهيونيّة. إذ برأيِه أنَّ البُعد اليهوديَّ في معظم الأحيان هو بعدٌ زَخرفيٌّ تَبريريٌّ، استُخْدِمَ كأداةٍ تعبويَّةٍ بهدف التَّحشيد. ويؤكِّد الكاتبُ أنَّ الصّهيونيّة ليسَت مجرَّدَ انحرافٍ عن الحضارة الغربيَّة، وإنَّما هي إفراز عضوي لهذه الحضارة، ولِما يُسمَّى بالحداثة الدَّاروينية، أي الحداثة التي تَرمي إلى تحويل العالم إلى مادَّة استعماليَّة تُوظَّف لصالح القويّ.

بطاقة الكتاب

عنوان الكتاب: الصّهيونيّة والحضارة الغربيَّة.
مؤلف الكتاب: د. عبد الوهاب المسّيري.
دار النَّشر: دار الهلال.
سنة النَّشر: ٢٠٠٣م.
عدد الصّفحات: ٤٢٢.
اللغة الأصلية للكتاب: اللغة العربية. (صدرت له عدة ترجمات بعدة لغات).

الفصل الأول: الأصول الغربيَّة للرُّؤية الصّهيونيّة

في هذا الفصل يُركِّزُ الباحثُ على النَّظرِ إلى الحركة الصّهيونيّة من خلال سياقها التَّاريخي وإطارها الثَّقافي، كتعبيرٍ مباشَرٍ وبلورةٍ للنَّموذج الحضاريِّ الغربيّ الحديث؛ فمنذ نهاية القرن

الرابع عشر، بدأتْ تدخلُ تغييراتٌ بنيويّةٌ عميقةٌ على المجتمعات الغربيَّة، فبدأ النِّظام الإقطاعي ببنائه الهرميِّ الثَّابت يَهتزُّ، وقامَت الثَّوراتُ والحركات الفكرية والاقتصادية المختلفة، بعد أن بدَتْ إرهاصاتُ التحوُّل إلى الرَّأسمالية. كانت المجتمعات الأوروبية في ذلك الوقت خاضعةً لدول وإمارات مُستقلّة تَفتقر إلى سلطة مركزية قويّة، وكانت كلٌّ منها مكوَّنةً من جماعات متماسكة مُنفصلة لكلٍّ منها قوانينُها، وكان اليهودُ كجماعة مُصنَّفينَ قانونيًّا باعتبارهم غُرباء، والغريبُ عرفًا كان تابعًا للمَلك تبعيّةً مباشرةً. ولذلك كان اليهودُ حرفيًّا أقنانَ بلاط، وهذا ما حوَّلَهم إلى ما يُشبهُ أدوات إنتاج، وبالتَّحديد جماعة وظيفيّة ماليّة تابعة للطَّبقة الحاكمة، وهكذا كان اليَهودُ أقلِّيةً دينيّةً في المجتمع الإقطاعي المَسيحي، تَقفُ على حوافِّ المجتمع وليس في داخله، وتُوكَلُ إليهم مهمَّةُ التِّجارة كوظيفة ثانويَّة في تلك العصور.

أسهمَتْ عدَّةُ عوامل سياسية واجتماعية واقتصادية في تحوُّل المجتمعات الغربيَّة إلى نمط الإنتاج الرَّأسمالي، وأدَّى هذا التحوُّل إلى تراجع دور اليهود كجماعة وظيفيَّة في البناء الهرميِّ للنِّظام الإقطاعي، الذي كان نجمُه يأفُلُ وصولاً إلى نهاية القرن التَّاسع عشر، فالثَّورة الرَّأسماليَّة هي في نهاية الأمر ثورةٌ في طريقة الإنتاج والتَّوزيع، وفي بناء المجتمع، وفي علاقة الحاكم بالمَحكوم. وقد أدَّى هذا التَّراجُع لدور اليهود إلى انعزالهم في جيوب سكنيَّة مُنعَزلَة سُمِّيَتْ بـ «الغيتو»، تحوَّلَت فيما بعدُ إلى مكان تتمُّ فيه محاصرةُ اليهودِ وعَزلُهم، وهذا ما أدَّى إلى ظهور المسألة اليهودية.

ولَّدَت الثَّورةُ الرَّأسمالية نمطًا إنتاجيًّا جديدًا، أدَّى إلى ظهور التَّشكيل الإمبريالي الغربيِّ بأشكاله المختلفة، الذي وصلَ إلى قمّته حين قامَت الاحتكاراتُ الدَّولية بتَقسيم العالَم بكلِّ ثرواته وأسواقه فيما بينَها. ولا يُمكِنُ رُؤيةُ الصّهيونيّة خارجَ هذا السِّياق الاستعماريِّ الإمبريالي، فقد كانَت الصّهيونيّة هي الحلُّ الاستعماريُّ للمسألة اليهودية، فتوجَّهَ المجتمعُ الأوروبيُّ الحديث إلى تأييد فكرة تَصدير المسألة اليهوديّة والفائضِ البشريِّ اليهوديِّ غيرِ المُنتج والمُنعزِل إلى أيِّ مكانٍ آخر خارجَ أوروبا. وبذلك نجحَ اليهودُ في الاندماج في الحضارة الغربيَّة من خلال التَّشكيل الإمبريالي الغربي، بعد أن فشلوا في تحقيقِه من خلال التَّشكيل الحضاريِّ والاجتماعي الغربي.

تميَّزَت فكرةُ تصدير المسألة اليهوديّة إلى الخارج بخاصيَّتَين؛ الأولى، الشَّكل الاستعماري الإحلالي، كما فعل البِيض في أميركا الشَّمالية مع الهنود. الخاصيّة الثانية، عَمالةُ الاستعمار

الصهيـوني للمشروع الامبريـاليِّ الغـربي. فالدَّولة الصّهيونيّة سـتكون تحتَ وصايـة بريطانيا العُظمى، واليهودُ سيَكونون حرَّاسًا على طول الطَّريق، ابتداءً من الشَّرقَينِ الأدنى والأوسط حتَّى حدود الهند.

الفصل الثَّاني :الصّهيونيّة والرُّومانسية والنِّيتشوية

يَعتبر الكاتـبُ أنَّ الفكرَ الرُّومانسيَّ هو أحدُ أهمِّ مصادرِ الرُّؤيـة الصّهيونيّة للواقع، ومن أهمِّ تبدِّياتِ الفكرِ الرُّومانسيِّ الفلسـفةُ الدّاروينية، وجوهرُ المنظومـة الدّاروينيّة أنَّ العالَمَ في حالة تغيُّرٍ مستمرٍّ وتطوُّرٍ إلى الأرقى، وأنَّ آليةَ التغيُّرِ هي الصِّراع، وهو صراعٌ يُحسَمُ لصالح الأقوى من النَّواحي المادية. كما أنَّ النِّيتشـوية هي أحدُ التبدِّيات المُتطرِّفة والمُتبلورة للرُّؤية الرُّومانسية، أو بتعبير آخر هي رومانسيةُ عصر الإمبرياليّة والعنصريّة، فهي التَّعبيرُ الفلسفيُّ عن الرُّؤية الدّاروينيّة للواقع.

ويَرى الكاتبُ أنَّ ثمةَ أنساقًا فكريّةً عديدة مُرتبطة بالثَّورة الرَّأسمالية، أسهمَت في تشكيل الرُّؤية الصّهيونيّـة للعالَم، ومن أهمِّ هذه الأفـكار الرُّؤيةُ الدّاروينيّةُ التي يَعدُّها الكاتـبُ البنيةَ الفكريّةَ التَّحتيّة للحَداثة الغربيَّة.

ويَتناول هذا الفصلُ علاقةَ كلٍّ من الرُّومانسـية والنِّيتشـوية بالصّهيونيّـة، وكيف حدَّدَتا الأُطُرَ الإدراكيّةَ للصّهاينة.

فالفكرُ الصهيونيُّ تفكيرٌ عضويٌّ عنصريٌّ متطرِّفٌ، والتصوُّر الصهيونيُّ لعلاقة اليهوديِّ بأرضه تصوُّرٌ عنصريٌّ ضمنيٌّ، فاليَهوديُّ الذي لا يَعيش في أرض الميعاد، يَعيشُ منفيًّا مُنقسمًا على نفسه مُوزَّعَ الولاء مُمزَّقًا، وحالةُ الكمال والتّكامل العضوية لا تتمُّ إلا بعد العودة. والشَّـعب العضويُّ هو الشَّعبُ الذي يَترابط أعضاؤُه ترابُطَ الأجزاء في الكائن العضوي الواحد، والذي تَربطُه رابطةٌ عضويّة بأرضه وتُراثه.

ويُشار إلى الفكر القوميِّ، الذي يَصدرُ عن مفهوم الشَّعب، على أنَّه فكرٌ قوميٌّ عضويّ. ويَرتبط هذا المفهومُ بمفهوم آخَرَ، وهو الشَّعبُ العضويُّ المَنبوذ، فالجماعاتُ اليهوديّةُ كانَت تُشكِّلُ في كثير من الأحيان جماعةً وظيفيّةً متماسكةً عُضويًّا داخل الحضارة الغربيَّة، مُكتفيةً بذاتها، ولكنَّها فقدَت وظيفتَها نتيجة التحوُّل الاقتصادي والاجتماعي إلى الرَّأسمالية، وغيرِ ذلك من العوامل،

فتمَّ نبذُها وأصبحَت شـعبًا عضويًّا منبوذًا. وهذا المَفهوم يُشـكِّلُ حجـرَ الزّاوية في التَّفاهُم بين الصّهاينة وأعداء اليهود، فهم جميعًا يَرَونَ أنَّ اليهودَ شعبٌ عضويٌّ واحدٌ لا ينتمي إلى الغرب أو إلى أيِّ وطنٍ، لأنَّه يَرتبط عضويًّا بـ «إرتس يسرائيل» أي أرض الميعاد.

الفصل الثَّالث :الفكر الاسترجاعي

يشـيرُ الكاتبُ في هذا الفصـل إلى أنَّ الأيديولوجيا الصّهيونيّة نبتَـتْ في تربةٍ غير يَهوديَّة، ثمَّ تحدَّدَت معالمُها الأساسيّةُ في منتصف القرن التاسعَ عشرَ على يدِ مُفكِّرينَ صهاينة غيرِ يهود، ثمَّ تبنَّتْها بعضُ القيادات اليهوديّة في أواخر القرن التاسعَ عشرَ.

في بدايات القرن السـابعَ عـشرَ ظهرَ ضربٌ من الفِكر الصهيونيِّ في صفوف الاسـتعماريين الغربيين، يُبشِّر بالعودة الجماعيّة لليهود ليَسـتوطنوا في أرض أجدادهم في فلسـطين. وقد ظهر هذا الفكرُ في صفوف المسـيحيِّين البروتسـتانت، الذين يُطلَق عليهم اصطلاحُ الاسترجاعيِّينَ، أي أصحاب العقيدة الاسترجاعية عن عودة المسيحِ المُخلِّص ليَحكُمَ العالَمَ. وحسبما جاء في هذه العقيدة فإنَّه لن يتحقَّقَ الخلاصُ إلا باستثناء اليهود لفلسطين ليتمَّ تنصيرُهم. إلا أنَّ الافكار الدِّينيَّة بدأتْ تتحوَّل بالتَّدريج إلى ما يُشبِهُ البرنامج التَّبشيريَّ الدّينيَّ السّياسي في القرنين السّابع والثّامن عشر، ثمَّ وصلَت إلى قمّته في القرن التّاسـع عشر، وأصبح الاسـتيطانُ خدمةً للمصالح الرَّبانيـة والإمبرياليّة في الوقت نفسـه. فإرتس يسرائيل هي الأرضُ التـي يتحدَّثُ عنها الكتابُ المُقدَّس، وهي أيضًا البلدُ الذي يَقع في قلب الإمبراطورية العثمانية، التي كان الجميعُ يتوقَّعونَ سقوطَها لِيرَثوها ويملَؤوا الفراغَ النَّاجمَ عن هذا السُّقوط.

الفصل الرَّابع :الإدراك الغربيُّ لأعضاء الجماعات اليهوديَّة

أدركَ الغربُ أنَّ أعضاء الجماعات اليهوديّة، باعتبارهم عنصرًا نافعًا، يُمكن توظيفُه، وهذا النَّمط الإدراكيُّ يعود إلى شـيوع ظاهرة الجماعة الوظيفيّة في المجتمعات الغربيَّة، والجماعة الوظيفيّة هي جماعةٌ بشريّة يَسـتجلِبُها المجتمعُ لتضطلع بوظائف يأنفُ أعضاءُ المجتمع القيامَ بها، لأنَّه يَعتبرها مشـينةً، أو لأنَّهم عاجزونَ عن القيام بها لأنَّها تتطلَّـبُ أدواتٍ وخبراتٍ معيّنةً. وعادةً ما يُعـرَّف عضوُ الجماعـة الوظيفية في ضوء الوظيفة التي يَضطلع بهـا، وفي ضوء مدى نجاحه أو

إخفاقه في أدائها، أي مدى نفعه، وقد أصبح مفهومُ نفعِ اليهود مفهومًا مركزيًّا في الحضارة الغربيَّة مع ازدهار فكرِ حركة الاستنارة، ومع هيمنته شبهِ الكاملة على الفكر الفلسفيّ والأخلاقيّ الغربيّ. ومـن أهم ركائز هذا الفكر في المجال الأخلاقيِّ الفلسـفةُ النَّفعيّة التـي تَنظر للعالم كلِّه ولكافة مجالات الحياة من منظور المَنفعة، ويُمكِنُنا القولُ بأنَّ الغرب قد أدرك تمامًا في عصر الاسـتنارة أنَّ حل المسـألة اليهوديّة يَكمـن في تحويل اليهود إلى مادةٍ بشريّـة نافعة، وهو مصطلح أصبحَ شائعًا عن اليهود في ذلك التَّاريخ.

وقـد تقبَّلَ الصهاينـةُ هذه الأطروحة النَّفعيّـة الماديّة تمامًا، وأدركـوا دورَ أعضاء الجماعات اليهوديّة داخل نفس الإطـار. ففيزيائيًّا تحولَّت الجماعةُ الوظيفيّـة اليهوديّة إلى دولةٍ تُغرس في الشَّرق العربيِّ في العصر الحديث. وأهمُّ وظائف هذه الدولة الصّهيونيّة على الإطلاق هي الوظيفة القتاليَّـة، أي أنَّها وظيفةٌ مملوكيّـةٌ (من المماليك) بالدَّرجة الأولى. فعائدُ هـذه الدَّولة الوظيفيّة الأساسُ عائدٌ استراتيجيٌّ، والسِّلعةُ التي تُنتجها هي القتالُ نظير الدَّعم الماديّ.

الفصل الخامس: الصّهيونيّة بين الجذور الغربيَّة والدِّيباجات اليهودية

يُشـير الكاتبُ ابتداءً إلى أنَّ الصّهيونيّة حركةٌ لا دينية، ولكنَّها شـأنُها شأنُ حركات مُماثلة في الغرب كان لا بدَّ أن تُجنِّدَ الجماهيرَ من خلال ديباجات تَفهمُها، ولذا قامَت الصّهيونيّةُ بالاستيلاء على اليهوديّة تمامًا، ثمَّ قامَت بعلمنتها من الدّاخل، إلى درجة أنَّ الحركات الدِّينيَّةَ الأرثوذوكسيةَ التي قامت في الأساس لمحاربة الصّهيونيّة انتهى بها الأمرُ إلى أن تبنَّت الصّهيونيّةَ إطارًا مرجعيًّا.

ويُرجِع الكاتبُ السـببَ الأسـاسيَّ، الذي أدَّى إلى نجاح الصّهيونيّة في تحقيق أهدافها، إلى تصاعد معدَّلات الحلوليّـة داخل اليهودية. وتَدور الرُّؤيةُ الحلولية الكُمونية حول ثلاثة عناصر؛ الإله، الإنسان، الطَّبيعة. وقد نجمَ عن حلول الإله في كلٍّ من الشَّعب والأرض أنْ أصبحَ الشَّعبُ مُقدَّسًا والأرض -كذلك الأمر- مُقدَّسة.

وقـد توصَّلَ الكاتبُ إلى ما أطلق عليه الصِّيغة الصّهيونيّة الأساسـية الشّـاملة، مُثبتًا أنَّ الرُّؤيةَ الصّهيونيّة للعالَم هي نتاجُ التَّشكيل الحضاريِّ الغربيِّ، وتَنتظمُ الصِّيغةُ في ثلاث نقاط:

أ. اليهودُ شـعبٌ عضويٌّ منبوذٌ غـيرُ نافعٍ يجبُ نقلُه خارجَ أوروبا، ليتحوَّل إلى شـعبٍ عضويٍّ نافع.

ب. يُنقَل هذا الشَّـعبُ إلى أي بقعة خارج أوروبا، حيث استقرَّ الرأيُ في نهاية الأمر على فلسـطين، بسـبب أهميّة موقعها الاسـتراتيجي للحضارة الغربيَّة، وبسـبب مقدرتها التَّعبويّة للمادة البشرية المُستهدَفة.

ج. يتمُّ توظيفُ هذا الشَّـعب لصالح العالم الغربي، الذي سـيَقوم بدعمِه وضمانِ بقائِه واستمراره داخل إطار الدَّولة الوظيفية في فلسطين.

ويَنظر الكاتبُ إلى هذه الصِّيغة الشّـاملة على أنَّها الأسـاسُ الذي يَستند إليه العقدُ الصهيونيُّ الصامت بين الحضارة الغربيَّة والحركة الصّهيونيّة بشأن يهود الغرب.

الفصل السَّادس: الجذور الغربيَّة للاعتذاريات الصّهيونيّة ونظرية الحقوق

يُعرِّف الكاتبُ الاعتذاريات بأنَّها الحججُ التي يَسـوقها المرءُ ليَرفعَ اللَّومَ عن نفسه، وليُبرِّرَ ما يَقوم به من أفعالٍ عدوانيّة، وليُضفي نوعًا من المعنى على فعلتِه. وتتفرَّع نظريةُ الحقوق بحسب الكاتب من هذه الاعتذاريات نفسِـها. وتنطلق الاعتذارياتُ الصّهيونيّة من الافتراض المحوريِّ في الفكـر القوميِّ العضويِّ والعنصريِّ الغـربيّ، الذي يَذهب إلى أنَّ أعضـاء الحضارة الغربيَّة الغازية أكثرُ تفوُّقًا من النَّاحيتَينِ الحضاريّة والعِرقيّة من أعضاء الحضارات المَغزوّة، وأنَّ تخلُّفَ الحضارات الشَّرقيّة أمرٌ وراثيٌّ حتميٌّ.

إنَّ الأسـطورة الإمبرياليّة الغربيَّة لا تُؤكِّدُ نهايةَ التَّاريخ وحسب، وإنَّما نهايةَ الجغرافيا كذلك، فالأرضُ التي يَستوطِنُ فيها الإنسانُ الأبيضُ هي أرضٌ وحسب، ليس لها حدودٌ، وهي تتَّسِعُ كلَّما زادَ عددُ المستوطنين وازدادوا قوةً. وأسطورةُ الاستيطان الصّهيونيّة هي أسطورةُ التوسُّع بالدَّرجة الأولى، فإرتس يسرائيل ليس لها حدودٌ واضحةٌ، وفكرةُ اليهوديِّ الخالص مَثلُها مَثَلُ فكرةِ الرَّجل الأبيض المُتفوِّق، تمَنح اليهودَ حقوقًا مقدَّسةً وخالدةً لا تتأثَّر بأيِّ اعتباراتٍ أو مطالبَ تاريخية. كما أنَّ اليهود، حتى وهم في حالة الشّتات، لهم صِلةٌ مباشرة سماويّةٌ وأبدية، وهي صِلةٌ حلولية عضوية.

الفصل السابع :تيودور هرتزل، الفكر الاستعماري والعباءة اللِّيبرالية

يُقدِّم الكاتبُ في هذا الفصل نموذجًا تفسـيريًّا ليتبيَّنَ للقارئ كيف يُختبر الفكرُ الاستعماريُّ

الغربي وراء الدِّيباجات اللِّيبرالية والاشـتراكيّة واليهودية. حيث سادت في أوروبا أيديولوجيَّتان سياسيَّتان أساسيَّتان هما اللِّيبرالية والاشتراكيّة، وهما أيديولوجيَّتان تقفُ كلٌّ منهما على الطَّرف النَّقيـض من الأخرى، ومع هذا تبنَّى فريقٌ من الصهاينـة الأيديولوجية الاولى، وتبنَّى فريقٌ آخر الأيديولوجيةَ الثانية. ثمَّ يَطرح الكاتبُ السُّؤالَ المُلِحَّ التالي؛ كيف يمُكِنُ لحَمَلةِ رُؤيةٍ واحدةٍ تبنِّي أيديولوجيَّتَين مُتناقضتَين؟ وفي معرض إجابته يُقدِّمُ الكاتبُ التَّفسيرَ التالي:

أ. اللِّيبرالية التي تَبنّاها الصهاينةُ لا تُطبَّقُ إلا على المستوطنين الصَّهاينة، وأما الاشتراكيّة فهي آليّةٌ من آليّات الاسـتيطان الإحلالي، فجُيوش فرنسا كانَت تدكُّ القرى الآمنة في الجزائر، على حين كانت شعاراتُ الحريّة والإخاء والمساواة تُرفرِفُ فوق باريس.

ب. إنَّ بعضَ القِيَم اللِّيبرالية والاشـتراكيّة الإيجابيـة كان الغربُ يَحصر نطاقَ تطبيقها في دُوَله فقط، والدَّولة الصّهيونيّة تنتمي لهذا النَّمط.

ج. كما أنَّ الصّهيونيّة وظَّفَت الدِّينَ اليَهوديَّ في أن تُسـبِغَ على نفسـها قدرًا من الشَّرعية، فإنَّها كذلك قد وظَّفت الأيديولوجيات السياسـيّة لتُسبِغَ على نفسها قدرًا من الشَّرعيّة السِّياسيّة.

د. اللِّيبراليـة والاشـتراكيّة وغيرُها مـن الأيديولوجيـات والرُّؤى هي مجـرَّدُ زخارفَ أو ديباجـاتٍ يتمُّ لَيُّ عُنقِها لتبرير المشروع الصهيوني، ولزيادة مقدرته التَّعبوية. وكان لا بدَّ من تنويع الأيديولوجيَّات والدِّيباجات، على أنْ يَبقى الجوهرُ أو الإجماعُ الصهيوني كما هو.

الفصل الثَّامن: الصّهيونيّة الاشتراكيّة

يُفنِّـدُ الكاتبُ في هذا الفصل ادِّعاءَ الفكر الاشـتراكيِّ عند بعض النُّخب الصّهيونيّة، وأهمُّهم (مـوسى هـس - Moses Hess)، و(أهـارون غـوردون - Aaron David Gordon)، و(نحمن سيركين - Nachman Syrkin)، و(دوف بير بورخوف - Dov Ber Borochov). ويُؤكِّد أنَّ الفكرَ الاشـتراكيَّ الصهيونيَّ يَختلف بشكلٍ جوهريٍّ عن الفكر الاشتراكيِّ العالميّ، فهو فكرٌ قد فُـرِّغ من مضمونه الإنسانيِّ، ومن أيِّ حديث عن العدالة والمساواة، ويَظهر هذا في كتابات الصَّهاينة الاشـتراكيين في محاولتهم تفسـيرَ ما يُسمَّى التَّاريخَ اليهوديَّ والمسـألة اليهودية، فيَصِلونَ إلى

نتائج اســتعمارية تمَّ تحديدُها مُسبقًا. كما أنَّهم جميعًا يَنطلقونَ من الصِّيغة الاشتراكيّة الأساس، ثمَّ يُضيفون إليها ديباجاتٍ اشتراكية نابعةً من خصوصية وضع اليهود في الحضارة الغربيَّة.

كما يُصنِّفُ الكاتبُ كتاباتِ الفلاسفة الصَّهاينة الاشتراكيِّين بأنَّها تَنتمي إلى مدرسة الإمبرياليِّين الاشــتراكيين، الذيــن يُنادونَ بتأييد المــشروع الإمبريالي الغربيّ، لأنَّهم سـيَقومون بغزو الشَّرق المتُخَلِّف، وسيُدخلون عليه التكنولوجيا الغربيَّة المتُطوِّرة، وهذا سيُؤدِّي إلى ظهور الاشتراكيّة، أي أنَّه منَ هذا المنظور نكتشفُ أنَّ الإمبرياليّة تؤدِّي إلى الاشتراكيّة.

الفصل التَّاسع: (ديفيد بن غوريون)؛ الزَّعيم والرُّؤية

يَعتــبر الكاتبُ أنَّ الرُّؤية الصّهيونيّة للواقع بكلِّ تناقضاتها تجسَّــدَت في شــخصٍ واحد، هو (ديفيد بن غوريون - David Ben-Gurion)، الذي لم يُنظِّر للصهيونية وحســب، وإنَّما أســهمَ في تحويل الرُّؤية إلى حقيقةٍ واقعةٍ بكلِّ وحشــيّتِها ودمويَّتِهــا. ويعدِّدُ الكاتبُ أفكارَ بن غوريون في النّقاط التَّالية:

أ. عــداوة (بن غوريون) لدُعاةِ اندماج اليهود مع غيرهم من الشُّــعوب، ويَرى أنَّها دعوةٌ للفشــل وللاعتماد على الآخرين، والعجز عن اتِّخاذ القرار، كما هاجم «الدياســبورا اليهوديّة»، ودَعا جميعَ اليهود للهجرة إلى أرض فلســطين، ليترَقَّوا ويتحرَّروا جســديًّا ومعنويًّا، وأنَّ الحياةَ اليهوديّة الكاملة لن تتحقَّق إلا في دولةٍ يهودية مستقلّة.

ب. الإيمانُ بالعنف، إذ يكتســبُ بُعدًا خاصًّا، ويُصبحُ وســيلةَ بعثٍ حضاريٍّ، ويَرى (بن غوريون) أنَّ الجيشَ الاسرائيليَّ هو خيرُ مُفسِّرٍ ومُعلِّقٍ على التَّوراة، وهذا الجيشُ ليسَت وظيفتُه الدِّفاعَ عن "إسرائيل" وحسب، بل إنَّه البيئةُ التي تُولَد فيها الحضارةُ الإسرائيلية، كما أنَّ بعثَ العُنف بالنِّســبة لـ (بن غوريون) هو بعثٌ للشَّــخصية اليهوديّة الحقيقيّة، والعنفُ هو السَّــبيل الوحيد للتَّخلُّص من المَنفــى الرُّوحي. وقد ترجمَ (بن غوريون) رؤيتَه هذه على أرض الواقع، فهو المســؤولُ عن إنشــاءِ القوّة العســكريّة الصّهيونيّة، وعلى رأســها «الهاغاناه»، وحينما أُنشــئت الدَّولةُ قام بحلِّ كلِّ المنظَّماتِ العسكريَّةِ الصّهيونيّــة، وحوَّلَها جميعًا إلى جيش الدِّفاع الإسرائيــليّ، وتأكيدًا على رؤيتِه لموقع الجيش الإسرائيليِّ مَحلِّيًّا وإقليميًّا وعالميًّا، شــغلَ (بن غوريون) منصبَ وزير الدِّفاع

في جميع الوزارات التي رأسَها، كما أسهمَ في صياغة سياسة «إسرائيل» الخارجية، وتأكيد دورِها كحارسٍ للمصالح الإمبرياليّة.

ج. إيمان (بن غوريون) بالأساطير، لا سيَّما «الماشيحانية»، المتُعلِّقة بظهور المُخلِّص في نهاية التَّاريخ، وشرطُها عودةُ اليهود إلى أرض الميعاد.

د. اشتراكية (بن غوريون)، وهي من نوع الاشتراكيّة الانعزالية التي يَرفض فيها الصهيونيُّ الاندماجَ في عالم الأغيار، ويَبذل قصارى جهدِه للبقاءِ بعيدًا عنهم، والاحتفاظِ بإخلاصِه للمَصير اليهوديِّ الفريد.

الفصل العاشر: الجَيبان الاستيطانيّان في «إسرائيل» وجنوب أفريقيا

في هذا الفصل يَعقد الكاتبُ مقارنةً بين الجَيبَينِ الاستيطانيَّينِ في "إسرائيل" وجنوب أفريقيا، ويَخلص فيها إلى أنَّ «إسرائيل» ليسَت ظاهرةً يهوديّةً، وإنما هي ظاهرةٌ استعماريّةٌ استيطانيّة. وتتمحوَرُ نقاطُ المقارنة حول الطَّبيعة، والموقع الجغرافي، والظُّروف الثَّقافيّة والسِّياسيّة، والوظيفة والدَّور والعِرق، والأساطير الدِّينيَّة، والدِّيباجات المُشتركة، والرُّؤية القوميّة العضويّة...إلخ.

خاتمة

حاول كثيرٌ من الكُتَّاب تشخيصَ مفهومِ اليهوديّة والصّهيونيّة والحضارة الغربيَّة، والعلاقة بينهما، ومَن الذي يتحكَّمُ بالآخر؟ وقد توصَّلُ الكاتبُ إلى خلاصةٍ مفادها أنَّ الحضارةَ الغربيَّة بأفكارها النَّفعيّة والنِّيتشوية والدّاروينية هي التي تستغلُّ الدِّيانة اليهوديّة واليهودَ لخدمة مصالحِها الاستراتيجية، وأدَّى ذلك إلى خلقِ هذا الكائن المسخِ للدّيانة اليهوديّة، الذي باتَ يُعرف بالصّهيونيّة. وهو شكلٌ من أشكال الاستعمار استغلَّ جماعةً ليس لها منفعةٌ في الجغرافيا الغربيَّة، فنجحَ الغربُ في حرف المسألة اليهوديّة لتعبئة الفراغِ بعد تفكُّك الدَّولة العثمانية، وتوجيهِ العقيدة اليهودية لخدمة مصالحه الجيوسياسية الثقافيّة والاقتصادية والمالية والعسكرية الغربية (البريطانية ثم الأميركية)، وهذا أدَّى إلى زيادة التّخلُّف والظُّلم وعدم استقرار منطقة غرب آسيا، واحتقان المجتمعات المُسلِمة، وربمَّا يُؤدِّي مستقبلاً إلى أزمة في الحضارة الغربيَّة نفسِها.